نماذج من معطيات ثقافية تشكل الصورة النمطية للجزائري

د\بلعربي منور قسم العلوم الاجتماعية جامعة سيدي بلعباس

نقصد بالمعطيات الثقافية والحضارية أهم ما يميز مجتمع ما عن باقي المجتمعات واهم العناصر التي تشكل صورته النمطية ويمكن التعرف على أهم المعطيات الثقافية و الحضارية للمجتمع الجزائري من خلال التطرق للعائلة في المجتمع الجزائري بين الماضي والحاضر.

في بحثنا هذا كان لابد لنا من التطرق للعائلة كبنية ذات أهمية و وزن في المجتمع الجزائري ذلك أنها وبامتياز المجال السوسيولوجي الأمثل للدراسة باعتبارها الوعاء الحاوي والناقل لكل ما هو مادي أو ما هو لا مادي في المجتمع، فهي الخلية الأساسية والعمود الفقري لكل المجتمعات، وهي تلك المؤسسة التي تعمل على تسيير العلاقات ما بين الأجيال.

وبالنظر إلى دورها الأساسي والحساس في تحريك المجتمع وتغيير اتجاهات، كمؤسسة للتنشئة ،فالعائلة الجزائرية بكل ما تحمله من دلالات مختلفة هي الخلية القاعدية والنواة المنتجة للمجتمع ولكيانه الروحي والمادي ،هي حجر الزاوية والوتر الحساس الذي تتجلى فيه كل آثار التغيير التي تطرأ على المجتمعات،

و هي كما قال عنها بيير بورديو "الخلية الاجتماعية الأساسية والنموذج الذي على صورته تنتظم البنيات الاجتماعية ،لا تقتصر على جماعة الأزواج وذرياتهم ولكنها تضم كل الأقارب التابعين للنسب الأبوي ،جامعة بذلك تحت رئاسة قائد واحد عدة أجيال في جمعية واتحاد حميمين"

وكما قال عنها مصطفى بوتفنوشت بأنها أسرة ممتدة تضم في أحضانها عدة أجيال تتشكل من عدة أسر زواجيه تعيش تحت سقف واحد يسمى"الدار الكبرى عند الحضر"أو "الخيمة الكبرى "عند البدو و يتراوح عددهم من 20 إلى 60 شخصا .

و قد عرفاها كل من العيد دبزي وروبير ديكلوتر حيث وصفاها بأنها "جماعة منزلية مكونة من الأقارب القريبين الذين يشكلون وحدة اجتماعية اقتصادية قائمة على علاقات الالتزام من تبعية وتعاون"

كما تتميز العائلة الجزائرية التقليدية بصفة الانحدار الأبوي فالأطفال يأخذون نسب أبيهم وليس نسب أمهم، أي يأخذون لقب الأب ويتسمون به ويعلنون الولاء له، كما تكون الوراثة أبوية أي تمرر الملكية من الأجداد إلى الآباء ومن الآباء إلى الأبناء الذكور مخالفين في ذلك أحكام الشريعة التي يجلونها في العادة.

أما الأعمال المنزلية التي تحتاجها العائلة كالتنظيف والطهي والخياطة والعناية بالأطفال والعناية بشؤون ومتطلبات البيت فهي بحكم تقسيم الأدوار الاجتماعية تعطى للنساء والبنات، كما أن الرجال لا يقدمون أي المساعدة لنسائهم في إدارة الأعمال المنزلية لأنهم يعتقدون بأن أعمال البيت هذه لا تليق بهم

وهذا الاعتقاد مصدره ما يترتب عن الأدوار الاجتماعية من سلم اجتماعي ومنزلة اجتماعية عالية يتمتع بها في العادة الرجال بخلاف المنزلة الاجتماعية الوضيعة التي تشغلها النساء في المجتمع التقليدي.

وتتولى نساء العائلة الممتدة كالجدات والأمهات والزوجات والبنات والحفيدات مسؤولية تربية الأطفال ورعايتهم، مثلما يتولى الرجال عمليات التنشئة الاجتماعية خصوصا فيما يتعلق بشؤون الحياة العملية وبالقضايا الدينية والأخلاقية والاجتماعية المنضبطة انضباطا كليا بالمنظومة الثقافية السائدة.

ولتوضيح أكثر، يمكن إجمال خصائص العائلة الجزائرية فيما يلي:

– في العادة تصنف العائلة الجزائرية بالأسرة الأبوية، تتكون عادة من الجد و الأب و أحيانا العم وأحيانا أخرى الأخ الأكبر إذ يعتبر كل منهم الرئيس ومركز القوة، وسلطته ذات طبيعة مطلقة ونهائية... وانطلاقا من هذه الميزة التي تخولها له الأعراف والعادات يسهر على وحدة الأسرة و ما تملكه.

– تعد العائلة الجزائرية أسرة متعددة حيث تبيح تعدد الزوجات تحبذ الزواج الداخلي و المرتب من العائلة، حيث ينتشر نظام تعدد الزوجات في الجزائر مثل الكثير من المجتمعات الإنسانية ومن بينها المجتمعات العربية الإسلامية أين تبدو آثار الدين الإسلامي واضحة في تنظيم المجتمع، وتنظيم الأسرة ومؤسسة الزواج.

كما تعتبر الأسرة المتعددة الزوجات الشكل الأهم من أشكال الأسرة ،و التي تتكون من زوج واحد وأكثر من زوجة واحدة بالإضافة إلى الأطفال ،ولا بد أن تكون تلك الزيجات شرعية أي تتم بموافقة المجتمع ولا بد أن يكون للزوج أكثر من زوجة واحدة في نفس الوقت وليس في أوقات متعاقبة.

– تتميز العائلة الجزائرية بإعطاء مكانة للمسنين وهو تعبير عن الاحترام والاقتداء ،ويتمتع بجميع السلطات ،حيث يحدد أدوار ومراكز الأفراد المخصصة في الجماعة وله الحق في عقاب أي أحد عندما لا يتماشى سلوكه مع ما هو متفق عليه وهو الذي يرأس الحفلات والمأدبات العائلية بل ويعلن الزواج والطلاق في بعض الأحيان.

لأن طبيعة ثقافتنا الدينية كرست تلك المكانة التي تتمتع بها هذه الشريحة من الأفراد داخل مجتمعنا فإلى غاية زمن غير بعيد كانت ديار المسنين أمر غير متصور اجتماعيا حتى وإن وجدت منذ سنين فلم تكن تستقبل إلا شريحة خاصة من المسنين أولئك المهملين في الشوارع لأسباب مرضية أو غيرها.

ذلك أن المعطيات الثقافية والدينية وما تنص عليه من واجب احترام المسنين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ والتي تجعل للمسن مكانة مكرمة ومعززة داخل المجتمع فهو الذي يمثل العلم والمعرفة وهو بذلك الجيل المؤطر الذي يلقن التجارب والمعارف وغيرها من الممارسات وهو الذي بحكمته لا يمكن الاستغناء عنه.

ويشير "مولود فرعون " في هذا السياق إلى مكانة الشيخ أو كبير العائلة في المجتمع الجزائري بأنه هو من بيده السلطة السياسية والقضائية والتربوية، فالشيخ هو القاضي والإمام ويعطي النصائح ويساعد الغير، يتدخل في بعض الأحيان في الخصوصيات بحكم مركزه فهو إنسان مثقف لا يستطيع الكذب والمخادعة في نظر المجتمع ،و لا يحق له أن يتهرب من حيث هو رمز

غير أن التغيير الطارئ على تشكيلة العائلة أدى إلى تغيير حتى في النظرة إلى المسن فأصبح ينظر إليه كالعبء لما يتطلبه من رعاية وخدمات بدل ما كان بالأمس الوعاء الحافظ للعادات والتقاليد وسائر المعارف التقليدية .

–تنتمي الجزائر إلى النسب العربي و البربري والطابع البدوي معظم سكانها يقطنون الأرياف والقرى والمناطق النائية التي كانت إلى عهد قريب معاقل النشاطات الزراعية وما يترتب على ذلك من قيم ثقافية تكرس ذلك الواقع.

وبالرغم من هذه الخصائص و المعطيات التي يتميز بها المجتمع الجزائري إلا انه مثله مثل جميع المجتمعات هو في حالة تغير مستمر وحركة دائمة.

وكفضاء متوسطي كان لا بد للتحديث أن يطال المجتمع الجزائري وإذا ما نظرنا للأمور من زاوية نظريات التحديث فان التغير الاجتماعي إنما هو عملية انتقال تدريجي من المجتمع التقليدي التراتبي المغلق إلى المجتمع الحديث المفتوح على كل ما هو خارجي والمتحرر من سلطة التقاليد والسلطة السياسية التقليدية المطلقة وهذا التحول يشمل جميع أنشطة ومجالات الحياة الإنسانية

وبالفعل فقد تبلور التغيير وظهرت ملامحه على تركيبة العائلة الجزائرية على مر التاريخ وعبر فترات متلاحقة من الزمن ،و بفعل عوامل عديدة ومختلفة منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو بنيوي ومنها ما هو تاريخي ،فميلاد الأسرة النووية، كان بداية

بسبب المستعمر الذي استولى على أراضي الفلاح الجزائري، وكل ما انجر من تخلخل للبنيات التحتية للمجتمع الجزائري، و تفتيت النظام العشائري السائد وكل القيم التي كانت ترافقه علاوة على عزل الناس عن أسباب رزقهم وما أدى ذلك إلى تفقيرهم ،و مع ذلك استمرت العائلة الأبوية في الوسط الريفي مختلقة ظروف حياتية جديدة في أشكال متدهورة بإعادة التموقع في محيط اقتصادي واجتماعي مختلف

وهو ما دفعهم غداة الاستقلال إلى النزوح الريفي وإعادة تموضع جديد في فضاءات جديدة حاملة لقيم جديدة غريبة عن الجزائري، ثم في مرحلة لاحقة وتطلعا لتنمية اجتماعية تبنت الدولة الحديثة الاستقلال سلسلة من المخططات وإستراتيجية تنموية، وثورات صناعية وزراعية في أوساط السبعينات تجلت آثارها في نزوح ريفي مكثف، بحثا عن العمل الذي كان يفتقد له أكثر أهل الريف.

وبالتالي خلخلة أخرى للبنى العائلية التقليدية حيث أدت هذه العملية إلى إفراغ الأرياف من سكانها، على الرغم من أن التركيبة الأسرية لم تتأثر كثيرا، بحيث كان يميل أكثر هؤلاء "النازحون" إلى إعادة تشكيل أسرهم عن طريق إقامة تجمعات سكانية على شاكلة ما كانت عليه الأحوال في الأرياف أي مع مراعاة الرباطات الاجتماعية الموجودة.

ولكن هذا التكيف والمقاومة رافقاه أيضا أنواع أخرى ومستويات مختلفة من العثرات التي واجهت العائلة الجزائرية، ومن هذه العثرات الانسلاخ الذي تعرض له سكان الأرياف بنزوحهم نحو المدن والذي لم يستشعر في حينه

و حري بنا هنا الإشارة إلى ما قاله الهواري عدي عن الفرق ما بين التغيير الاجتماعي والتحول الاجتماعي مشيرا إلى ما حدث في الجزائر أثناء الاستعمار وبعده فيقول :" الحقيقة أن أي مجتمع يتلقى تحولات، يسعى للحفاظ على معاييره وقيمه الثقافية والأيديولوجية فإننا عندما نكون في حالة تغيير اجتماعي، يكون الوقت كاف للقيم والمعايير للتأقلم أو التكيف وإعادة التموقع وفق بنيات جديدة فالتغيير الاجتماعي ليس اختفاء للقديم وإخمادا للتقاليد...

فالتغيير عندما تكون أسبابه داخلية يترجم عبر تكييف النظام السوسيوثقافي للتبدلات الحاصلة كالتصنيع والعمران والتبادل الاقتصادي عكس حالات التحول الاجتماعي حيث تصبح القيم الثقافية والأيديولوجية محل مساءلة وبعنف من الخارج فان ردة الفعل وفق صيرورة تجعل العادة أو طرق العيش التقليدية عامة تتصلب وتتجذر ..

وهذا ما جعل بعض الملاحظين الاجتماعيين ينظرون للعائلة الجزائرية على أنها مجالا محافظا على للروابط الاجتماعية، وحماية القيم، حيث عملت الأسرة في المجتمع الجزائري على التقوقع والانطواء على نفسها، وحافظت على قيمها محافظة جيدة، بما في ذلك العلاقات الذاتية الفردية وقدرتها الضبطية.

وذكر الباحث المختص في علم الاجتماع العائلة مصطفى بوتفنوشت أن حركة التغيير التي تتم في الجزائر إنما تتم وفق عوامل خاصة لم تعرفها المجتمعات الأخرى هذه العوامل هي السرعة في الحركة والعنف.

ففيما يخص العنف فان أصله يعود إلى العنف الثوري من أجل تحرير البلاد الذي فيما بعد أصبح عنفا ثوريا من أجل سيطرة الصفوة الحاكمة ثم في وقت لاحق برز ذلك العنف الذي استحدث لفرض مشروع مجتمع بديل للمجتمع الاشتراكي.

أما سرعة الوتيرة فيمكن الحديث عنها بشكل خاص في العشرية الأولى بعد الاستقلال وذلك بالانتقال إلى الاستهلاك الجماهيري الذي عوض الاقتصاد العائلي الذي كان سائدا وإلى نظام الأجرة في النظام الفلاحي كما في النظام الصناعي ونظام الخدمات وهو ما مس تقريبا كل العمال اللذين كانوا إلى غاية زمن قريب معيلي أسرهم بأعمالهم الفلاحية البسيطة والمؤقتة في الغالب وانتقالهم إلى الثقافة الجماهيرية بواسطة الإدخال المكثف لأجهزة التلفزيون إلى الأسر في نهاية الستينات وإلى التربية الجماعية والمشرعة بواسطة دمقرطة التعليم ومجانيته واجباريته.

وكل هذه العوامل الجديدة والتي مرت على أنها من ايجابيات الاستقلال وفي وقت قياسي أدت إلى ظهور آثار على العائلة كأهم بنية في المجتمع كما طال التأثير أيضا التراتبية التي كانت تسير وفقها العائلة وذلك بتحول مركز السلطة والمسؤولية العائلية من يد الأكبر سنا إلى يد الأكثر ثقافة وتعليما وهو ما أدى إلى ظهور مرجعيات جديدة في مجتمع جديد لا يزال في طور التبلور والظهور.

ووجد الكبار أنفسهم محدودي الصلاحيات داخل الأسر ومسلوبي السلطة من طرف الأكثر تعليما ثم في وقت لاحق من طرف الأكثر غنى أو الذي يحكم زمام الإعالة المادية للأسرة وهو ما أدى إلى ظهور معايير اجتماعية جديدة وسلوكات مستحدثة، إن ضخامة التحولات الاجتماعية التي جرت خلال العقود الثلاثة التي مضت تسمح بالكلام عن مجتمع جديد ولكنه جديد لا يمحو القديم وأين التطور الحادث فيه هو مادي أكثر منه معنوي.

ومع هذا فلا بد من الإشارة إلى تلك الأبحاث –على غرار ما قام به هنري مندراس– التي أثبتت أن تغييرا أو تجديدا ضئيلا كإدخال الذرة الهجينة يمكن أن يثير ردود فعل متسلسلة تؤدي إلى تحول حقيقي للنظام الاجتماعي وأن التغييرات الصغيرة جدا قد تؤدي إلى انقلابات بنيوية على أعلى السلالم الاجتماعية.

و في هذا السياق يذكر لنا الهواري عدي مثالا واضحا يبرز من خلاله آثار الاجتثاث الثقافي الذي عايشه المنحدرين من الأرياف والمضطرون لمغادرتها وذلك لفهم ما طرأ على العائلة من تغيير حيث يقول:لفهم التغير الذي حدث يمكننا تأمل هذا الجزائري في 1980عمره ستون سنة وأمضى جزءا من حياته في قريته الصغيرة وأراد غداة الاستقلال دخول المدينة للاستقرار فيها وتعود على نظام حياتي جديد مضطرا ولكنه يشعر أنه يعيش في عالم آخر ،عالم يفقد كليا السيطرة عليه،يتقاسم السكن مع ابنه المتزوج مع كل الإزعاج الذي يشعر عندما يشاهد التلفزيون أو يتناول وجباته في حضور ابنه وزوجة ابنه.

هو في زمانه كانت الحرمة تجعله لا يواجه أبدا والده وهو برفقة زوجته، وهو حائر أمام ما يحدث أمامه اليوم بدون أن يعبر عن حيرته فالظروف ليست في صالحه، وحائر أكثر كيف أن زوجة ابنه، تقوم بتعرية أطفالها أمامه لتلبسهم ثيابهم وكيف أنها تأخذ البريد من ساعي البريد بيدها وكيف يتعالى صوتها والكهربائي أو السباك في بيتها وكيف لا تتردد في مشاهدة التلفزيون وما يبثه من مسلسلات تروي قصص الحب دون حياء...

فالجيل الذي ولد في العشرينات أو الثلاثينات من القرن المنصرم حيث كان الرجال يعيشون جنبا إلى جنب مع النساء دون التقاء نظراتهم قد ولى واندثر وبالنسبة للبقية المتبقية منهم فالجيل الجديد فاقد للقمنة.

إن مقاربة كهذه نفسية اجتماعية تبرز لنا الآثار النفسية التي أحدثها التغيير الطارئ على البنيات الأساسية للمجتمع الجزائري وتجب الإشارة إلى أن حلقات النزوح بهذه الكثافة لم تنتهي عند هذا الحد ذلك أن الجزائر عرفت فيما بعد عشرية أخرى وصفت بأنها دموية وسوداء مردها ذلك الانجراف السياسي وما عقبه من أحداث جراء الثامن من أكتوبر 1988 أدى هو الآخر إلى إفراغ الأرياف والقرى والمناطق النائية التي كانت معاقل النشاطات الزراعية من سكانها.

مع كل ما رافق ذلك من آثار عرفتها المراكز الحضرية تراوحت ما بين ظهور للبيوت القصديرية أو أعمار مرتجل جعلنا نحضر، وباستمرار إلى حالة نصف–حضرية لم تكتمل بعد على حد تعبير مصطفى لشرف وضعيات مثل هذه جعلت الكثيرين يتحدثون عن المدن المريفة ويبحثون في سلوكيات هؤلاء الحضريون الجدد حيث تكون إن الأسرة أو العائلة، مؤسسة تتميز بالتغير والديناميكية، وبأنها استطاعت أن تجتاز كل مرة التغيرات الاقتصادية الاجتماعية، بفضل ما تتمتع به من قوة تحمل ومقاومة وتكيف.

إن العقد الأخير من الزمن حمل أيضا أسباب تغيير اقتصادية فتحت الأبواب واسعة لإعادة تشكل المشاهد اجتماعيا وثقافيا فأمام ما أتاحته السياسة الاقتصادية للبلاد من فرص السكن (السكنات التساهمية ومختلف أشكال الحصول على سكن)

والقروض البنكية، وهي ظروف أملتها ضرورات التفتح العالمي ومن جهة أخرى التفتح الإعلامي العالمي الذي يعيشه ويتلقاه العالم أكمل والذي جعل كل المجتمعات في نفس نقطة الانطلاق –في تقديرنا الخاص- حيث جعل كل النماذج الاجتماعية مهددة أمام الذوبان في نموذج موحد تمليه ظروف موحدة عالمية، كل هذه الظروف التي اختصرناها في أسطر لا تكفي لحصر نتائجها ومخلفاتها على الحياة الاجتماعية في كل جوانبها.

و التغيير هنا إنما يخص أيضا المجال الثقافي والاجتماعي حيث يتم الانتقال من نظام التضامن العضوي ،و أولوية علاقات القرابة الدموية ،وسيادة القيم المتوارثة إلى دينامية اجتماعية جديدة تسودها قيم ومعايير الاستقلال،و الحرية النسبية للفرد في اختياراته وبالتالي مسؤولياته الفردية ووعيه الذاتي.

كل هذه التغيرات الطارئة على المجتمع الجزائري على غرار باقي المجتمعات العربية جعلت تلك الوثبة أكثر من حتمية اجتماعية والمتمثلة في الانتقال من صيغة التجمعات المحلية إلى نمط مغاير وهو النمط التعاقدي de la société communautaire à la société sociétaire. ولكنها وثبة لا تزال مستمرة . حمدوش رشيد، مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة، امتدادية أم قطيعة؟ (دراسة ميدانية: مدينة الجزائر نموذجا توضيحيا)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009.

المراجع:

1. سورة الإسراء:23.

[2]. وهي كلمة مشتقة غالبا من المحارم أو الحريم ومدلولها الاجتماعي المتفق عليه هي عدم سفور المرأة واحترامها لقواعد الجماعة المتفق عليها والتي وضعها غالبا الرجال لحماية حريمهم أي نساءهم من نظرات الغرب إليهم.

Lacheraf Mostafa. Ecrits didactiques sur ka culture, l'histoire et la société, Alger, ENAP 1988, .

-3Page 316

-4op cit, Page 12-13 Boutefnouchet Mostafa

5- هذه المعلومات تم التأكد منها بالاتصال بمديرية النشاط الاجتماعي لولاية سيدي بلعباس .

[6]. محمد سبيلا، "التحديث وتحولات القيم"، في أكاديمية المملكة المغربية، أزمة القيم ودور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر، سلسلة الندوات، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ربيع 2001، ص364-365.

7 Lahouari addi, les mutations de la société algérienne contemporaine p 1999,paris, édition la découverte, famille et lien social dans l'Algérie,

[8]. نقلا عن فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية: مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية، الطبعة 1، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980، الصفحة 160.

9. Lahouari addi, op cit p18

[1] حمدوش رشيد، المرجع السابق، الصفحة 269-270.

[10]. Boutefnouchet Mostafa ,la société algérienne en transition ,opu,2004 P.7-8.

[11]. Henri Mendras , La fin des paysans : changement et innovations dans les sociétés rurales de (Reliure inconnue - 1970) .françaises

[12]. وهي كلمة مشتقة غالبا من المحارم أو الحريم ومدلولها الاجتماعي المتفق عليه هي عدم سفور المرأة واحترامها لقواعد الجماعة المتفق عليها والتي وضعها غالبا الرجال لحماية حريمهم أي نساءهم من نظرات الغرب إليهم.

[13]. هي ما يمكن التعبير عنه لغة بادراك معنى القيم الاجتماعية السائدة في جماعة ما ومتفق عليها ويجب التقيد بها.

[14]. Lahouari addi ,op cit,pp18-19

[15] Lacheraf Mostafa. Ecrits didactiques sur ka culture, l'histoire et la société, Alger, ENAP 1988, Page 316.

[16] Adam A. Les influences occidentales dans les villes maghrébines à l'époque contemporaine, France, Aix 1974, Page 09.

17. محمد سبيلا ،المرجع السابق ص165.

18 Boutefnouchet Mostafa . op cit, Page 12-13.

19. مهيدة وهيبة رعاية الرضيع قراءة في العادات و التقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس مع مقارنة بالأساليب الطبية الحديثة اطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الثقافة الشعبية تخصص انثروبولوجيا جامعة تلمسان ص90

[20] je ? n°802, Paris, puf, 1974, p12 ,sociologie de l'Algérie, colloque sais Pierre bourdieu

[21] Boutefnouchet Mostafa , la famille Algérienne, évolution et caractéristiques récentes, Alger ,sned,1982,p40.

[21] Robert,Descloitres,Laid Debzi,système de parenté et structure familiales en Algérie, in annuaire de l'Afrique du nord ; Paris ; cnrs, 1963, p29.

[22] احسان محمد الحسن ،دراسة تحليلية في تغير العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثانية، ديسمبر 1985، الصفحة 52